الجزء الرابع — المجلد الثالث

المنار
١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام ان للاسلام صوى و« مناراً » كمنار الطريق

(مصر في يوم الاحد غرة ذي الحجة سنة ١٣١٧ * أول ابريل (نيسان) سنة ١٩٠٠)

اعادة مجد الاسلام

(كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون انهم مهتدون)

كثر الخوض في هذه الايام * في اعادة مجد الاسلام * فتبارت الالسنة بالكلام * وتسابقت في ميادين الصحف جياد الاقلام * فقارت عرج الحمير * ونهقت تطلب النفير * وتحاكي الناس الزئير * بالشهيق والزفير * فاشتغل بهذه المجالي والمظاهر * والمسامع والمناظر * من لا يميز بين الناطق والناهق * ولا يزيّل بين المسبوق والسابق * وأقبل قوم يتساءلون * عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون * يقولون كيف يعود للاسلام مجده * ويرجع اليه عزه وسعده * وثلثا أهله تحت سلطة الاجانب * والثلث الآخر قد أحدقت به النوائب من كل جانب * والجواب على هذا السؤال من الكتاب (كما بدأكم تعودون) ومن السنة (بدا الاسلام غريباً وسيعود كما بدا) ومن كلام علماء العمران « ان التاريخ يعيد نفسه » ولنوضح هذه الاشارات بشيء من الشرح والبيان ليظهر الحق للعيان

كان العالم الانساني قبيل ظهور الاسلام في غمرة من الشقاء والتعاسة وظلمات من الظلم والفتن وفساد الاخلاق وتداعي اركان المدنيـة السابقـة وصدع بنيانها فأراد الحي القيوم ان يحيي هذا النوع حياة طيبة ويقيم بناء مدنيته على أساس من الحكمة ليثبت ويبقى الى ما شاء الله تعالى ويبلغ به الانسان كماله المستعد هو له في أصل الفطرة القويمة فأظهر الله جل ثناؤه الاسلام في الامة العربية فحملته وطافت به العالم المستعد لقبوله بما سبق له من المدنية فما كان الا كلمح البصر أو هو أقرب حتى عم نوره المشرق والمغرب ودخل الانسان في طور جديد وأقام أركان مدنيته على أسس جديدة ثابتة لا تتزعزع ولا تتزلزل ما دامت الارض أرضاً والسماء سماء . وكيف تزلزل نواميس الفطرة أو تزول سنن الخليقة وقد أخبر مبدعها الحكيم الخبير بأنها محفوظة من التبديل والتحويل

لماذا اختار الله الامة العربية لهذا الاصلاح على سائر الامم ؟ اختارها وهو أعلم لاسباب ووجوه

« أحدها » انها كانت وسطاً بين الامم التي سبقت لها المدنية والبلاد التي أقيم فيها من قبل بنيان الحضارة وهي بلاد مصر وسوريا والجزيرة والعراق وفارس حيث كان التمدن الكلداني والاشوري والبابلي والفارسي والفينيقي والمصري واليوناني والروماني فيسهل عليها بذلك ان ترمي بذور المدنية في الارض القابلة وتلقي مباديء الاصلاح في النفوس المستعدة

« ثانيها » انها كانت ـ ولا مدنية لها سابقة ـ أشد استعداداً من تلك الامم التي سبقت لها المدنية لمبدأ الاصلاح الاسلامي الجديد ووضع أساسه الاول وهو استقلال الارادة واستقلال الفكر والرأي لانه لم يكن لها

رؤساء في الدين والسياسة يحكمونها بالجبروت والاستبداد فتفنى ارادتها في اراداتهم وتتلاشى آراء أفرادها في آرائهم فلا يرجع اليهم احد قولا ولا يملك لنفسه من دونهم ضراً ولا نفعاً . وأما تلك الامم فقد كان الرؤسون فيها ذائبين في رؤساء الدين والدنيا حتى لم تبق لهم ارادة ولا فكر ولا رأي الا ما ينفذ من الرؤساء ويمثل أفكارهم وآراءهم

« ثالثها » ان رقة الوجدان وقوة الفهم والادراك كانتا بالغتين فيهما درجة الكمال بمجرد سلامة الفطرة . وأمة هذا شأنها تكون أقبل الامم لدين الفطرة الذي جاء يخاطب العقل والوجدان معاً ويمحو من النفوس أثر التقليد الاعمى ويطمس رسومه وتكون أسرع انفعالا بالمؤثرات وأشد تمسكا بالمعتقدات .

« رابعها » انه كان عندها من عزة النفس وشدة البأس وكمال الشجاعة والحرية الشخصية وما يتبع هذا من الفضائل ما يحملها على حفظ ما تعتقده حقاً والاستماتة في المدافعة عنه على حين أماتت نفوس الامم الاخرى وذهب بارادتها ما تواتر عليها من الظلم والاضطهاد أحقاباً طويلة حتى سهل عليها مشايعة الظالمين على خذل الحق وتأييد الباطل كما هو واقع في غير أهل البادية من المسلمين لهذا العهد وهذا الوجه يقرب في المعنى من الوجه الثاني

« خامسها » انه لم يكن عند العرب من التقاليد الدينية شيء يستندون فيه على وحي سماوي وعلى سلف من الانبياء أو الحكماء والربانيين فيدافع ما جاء به الاسلام او يزاحمه وانما كان عندهم الشرك في العبادة الذي يسهل ابطاله بالبرهان وعلى وجه يقبله العقل وينفعل له الوجدان اذا وجد استقلال الفكر والرأي وكذلك كان .

هذا ما ظهر لنا الآن من وجوه اختيار الحكمة الالهية الامة العربية على سائر الامم لاظهار الاصلاح الاسلامي ونشره في العالم الانساني. وقد رزيء المسلمون بجميع أرزاء الامم السابقة التي لم تخضع للاصلاح الاسلامي من فقد الاستقلال في الارادة والفكر وضعف الفهم والوجدان والتسليم الاعمى للرؤساء والتقاليد الباطلة من البدع والمذاهب في أصول الدين والذلة والجبن والمهانة وزادوا على ذلك انهم فقدوا لغة دينهم التي جاءهم كتاب الاصلاح بها حتى ان علماءهم لا يفهمونه كما كان يفهمه الاعراب من رعاة الابل والشاء فكيف السبيل الى ارجاعهم اليه وهم لا يتناولونه بافهامهم وان الكثيرين منهم فتنوا بمدنية أوربا فبعضهم يرى ان السعادة فيها مطلقاً والبعض يرفضها وينهى عنها باسم الدين من غير فصل بين نافعها وضارها وبين ما كان منها موافقاً للاسلام أو مأخوذاً عنه وما ليس كذلك. فالاصلاح الذي يعيد للاسلام مجده لا يوجد الا على أيدي جماعة لهم استقلال في الفكر والارادة وعندهم شهامة وعزة ويمكن ان يفهموا القرآن أو يفهموه حتى اذا دعوا لجعله أصل الاصلاح مع السنة الصحيحة وما كان عليه السلف الصالح من العقائد والاخلاق والآداب والاعمال يلبون الدعوة وينصرونها بما يستطيعون من حول وقوة لا يزحزحهم عنها الرؤساء ولا يصدهم عن قبول ما فهموه تجزع عصارة أفكار القدماء. واستقلال الارادة والفكر لا يوجد الآن في الجملة الا عند طائفتين من المسلمين

(الطائفة الاولى) بعض المتعلمين على الطريقة الاوربية وأكثرهم من الاتراك والهنود وفيهم عدد غير قليل من المصريين وغيرهم وأكثر أفراد هذه الطائفة منحرفون عن صراط الدين غير مصبوغين بآدابه وفضائله واعماله

وما داموا كذلك لا يرجى منهم للامة خير ومولانا السلطان عبد الحميد يمقت هؤلاء المتمدنين ويراهم آفة على الامة وبلاد الاسلام. ومثل المصريين يسهل اقناعهم بقضايا الدين الحقيقية اذا وجد فينا علماء عارفون بالعلوم والفنون التي تلقوها والافكار الجديدة التي أشربتها قلوبهم يكتبون الكتب ويقرأون الدروس في التوفيق بين الاسلام وبين المدنية الحقة والعقل بل في بيان انهما صنوان لا يختلفان . وكم من صاحب شبهة أو شبه في الدين أرجعته قراءة « رسالة التوحيد » الى الحق اليقين وهؤلاء انما استفادوا من التعليم الجديد استقلال الفكر دون استقلال الارادة فالضعف والجبن غالبان عليهم وأكثر ما يرجى منهم نشر العلوم والفنون التي تعلموها ونشر الدعوة للاصلاح وتكثير سواد أهلها مهما كانوا آمنين من الخوف

(الطائفة الثانية) سكان البوادي (وبعض أهل المدن) من العرب فانهم لم يصبهم من ظلم الظالمين ما أصاب غيرهم لانهم بمعزل عن سطوة الملك وقهر السلطان ولم يأخذ سلطان التقليد بأعنتهم فيصرفهم عن استعمال عقولهم بالمرة الا ان هذه الطائفة يعسر عليها ان تجاري المدنية الحاضرة الا في استعمال آلات الحرب والكفاح فاذا أمكن باصلاحها ان يكون للاسلام قوة تحفظ بها جزء عظيم من البلاد الاسلامية وتكون بها الدولة عزيزة قوية يمكن للمسلمين ان يقيموا بناء مدنيتهم في ضمن دائرة هذه القوة وراحصنها الحصين كما كان شأنهم في مدنيتهم الاولى وكما فعلت الروسية في نشأتها الجديدة

كان المنار يدعو الى الوحدة الاسلامية التي تضمن لسائر الشعوب والملل حقوقها في بلاد الاسلام على اكمل وجه وهذه الوحدة الاسلامية لا يتيسر القيام بتعميمها من مصدر واحد مع اختلاف لغات المسلمين ومذاهبهم وحكوماتهم

واقطارهم ومذاهبهم فينبغي ان يدعى للوحدة الاسلامية عملا في كل عنصر من العناصر والشعوب الاسلامية على وجه خاص بان يضم الى الكلام في الوحدة العامة الوحدة الخاصة التي يحفظ فيها كل عنصر كيانه ويحمي حقيقته فان الخطر الذي يتهدد العرب بابتلاع الامم المتمدنة لهم لا يتهدد الترك الذين هم بين براثن اوروبا وأنيابها فاذا كسر باب المسئلة الشرقية ودخل الشرق الغاصبون من كل جانب فالمرجح ما قاله غير واحد من الباحثين في السياسة من ان الاتراك تنحصر سلطتهم في بر الاناضول فلا يمس استقلالهم فيه أحد لانهم ثم عنصر مستقل قادر على ان يحكم نفسه بنفسه ويجاري أوروبا في مدنيتها ولكن البلاد العربية تذهب فريسة للطامع اذا تقلص عنها ظل الدولة العثمانية بهذا الانقلاب الهائل والعياذ بالله تعالى ومجد الاسلام انما يحفظ بمجد العرب فلا بد من السعي لحفظه بالوحدة العربية واسم العرب يتناول اليوم مع أهل البادية في الشرق والغرب سكان البلاد من العراق الى مراكش شرقا وغربا فالاصلاح المعنوي يجب ان يكون عاماً لبدوهم وحضرهم كما يجب ان يكون عاماً لسائر المسلمين والاصلاح المادي على ضربين مدني وحربي فالمدني يقوم به الحضر ويتحدون فيه مع سائر الملل الذين يشاركونهم في البلاد والحربي يقوم به أهل البادية لاجل حمايتهم من العوادي . والعمدة في اعادة مجد الاسلام على الاصلاح المعنوي الادبي والمادي سياج له . ولا بد ان يكون السعي في الوحدة العربية على وجه لا يخل بسيادة الدولة العلية ولا يهيج علينا الدول الاوربية وسنبين هذا في جزء آخر ان شاء الله